المحاضرة الأولى

التمهيد

تمهيـد :

حين نقول « المصادر الأدبية » فإن هذا يقتضينا الوقوف عند هذه التسمية وقفة قصيرة لكي نرى ما يمكن أن يكون هناك من فوارق بين مصطلح « المصادر » والمصطلح الآخر الذي يكثر استخدامه كذلك ، وهو مصطلح « المراجع » .

فمن الدارسين من يرى أن المصدر « هو كل كتاب تناول موضوعاً وعالجه معالجة شاملة عميقة . أو هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق ، بحيث يصبح أصلا لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه ، كالجامع الصحيح للبخاري ، وصحيح مسلم ، هما أصلان ومصدران في الحديث النبوي ، بينما تعد كتب الأحاديث المختارة ، كالأربعين النووية ، من المراجع في ذلك . وككتاب الكامل للمبرد ، وصبح الأعشى للقلقشندي ؛ فهي أصول ومصادر في الأدب ، وغيرها مما أخذ عنها مرجع . ومثل هذا نقول في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام ، كلها أصول ومصادر في بابها ، وما اقتبس أو استمد منها مرجع في بابه » . [1]

ومعنى هذا أن المصدر يحتوي على المادة الأصيلة ، والمرجع هو الكتاب

---

(١) محمد عجاج الخطيب : المكتبة والبحث والمصادر ، ص ١٢٢ .

الذي رجع فيه صاحبه إلى هذه المادة في مصدرها وأفاد منها .

وباحث آخر يؤكد معنى المصدر هذا حين يقول : « فالمصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضم نصوصاً أدبية ، شعراً أو نثراً ، لكاتب واحد أو مجموعة من الكتاب ، لشاعر فرد أو لطبقة من الشعراء ، أو لخليط من كتاب وشعراء وخطباء ، رُويت هذه الآثار شفاها ، أو دونت في كتب ، أو نقشت على الأبنية ، ووصلتنا دون تعليق على النص أو تفسير له ، دون تمهيد له أو تعليق عليه » . (١)

أما المرجع عند هذا الدارس « فهو ما يساعد على فهم النص الأدبي وتوضيحه وتفسيره وتقويمه » . (٢)

ومع أن الحدود بين المصدر والمرجع تبدو — على هذا النحو — واضحة وحاسمة فإن هناك حالات يصعب فيها تقرير ما إذا كان الكتاب مصدراً أم مرجعاً .

فكتب الطبقات ومعاجم اللغة تعد — عند علماء المكتبات — من المراجع (٣) ، في حين تحتوي هذه الكتب على كثير من المادة الأصيلة . فهل هي مراجع ومصادر في وقت واحد ؟ .

ومن جهة أخرى فإن كتاباً مثل شرح ديوان الحماسة للمرزوقي يتضمن ديوان الحماسة الذي صنفه أبو تمام — وهو مادة أصيلة — وشرح المرزوقي ، وهو بمثابة تفسير لهذه المادة . فهل يعد هذا الكتاب مصدراً أم مرجعاً ، أم مصدراً ومرجعاً معاً ؟ .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : دراسة في مصادر الأدب ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر عبد المنعم محمد عمر : المدخل للدراسات العربية — نسخة على الآلة الكاتبة ١٩٦٧ ، ص ٣ .

هنا نجد الفصل صعباً بين ما هو مصدر وما هو مرجع . ولعل هذا هو السبب في أن بعض الكتاب لا يفرق بينهما . ولكن هذا تبسيط مخل وتسهل في الأمور .

ومن جهة أخرى نجد محاولة لحل هذا الإشكال عن طريق استخدام مصطلح إضافي . فبالنسبة للمعاجم ودوائر المعارف وكتب الطبقات وكتب التراجم وما أشبه يطلق عليها مصطلح « المراجع العامة » ، في مقابل المراجع الخاصة التي يتصل كل منها بفرع بعينه من المعرفة ، أو بموضوع بعينه لا يعدوه إلى سواه . ومن ثم يعد كتاب ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مرجعاً عاماً ، في حين يعد كتاب ككتاب « شعر الغناء في المدينة » للدكتور شوقي ضيف مرجعاً خاصاً .

وهناك أيضاً « المراجع الأصيلة » ، ويقصد بها تلك المؤلفات التي كتبت حول مصدر من المصادر في الزمن الذي صُنف فيه هذا المصدر أو في زمن قريب منه . ومن ثم يصبح شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام ، أو شرح الأنباري لمفضليات الضبي ، مرجعاً أصيلاً لفهم هذه الأشعار ، وهذا في مقابل ما يسمى بالمرجع المساعد ، وهو المرجع الذي لا يتصل أصلا بمادة المصدر ولكنه يمكن الإفادة منه بطريقة غير مباشرة في إلقاء الضوء عليها .

وقد تصنف المراجع تصنيفاً آخر وفقاً لقدمها وحداثتها . فيقال مرجع قديم ومرجع حديث . والمرجع الحديث يفيد غالباً من المرجع القديم . فكتاب « الكامل » للمبرد مرجع قديم في أدب الخوارج وغيره ، في حين أن كتاب « أدب الخوارج » للدكتورة سهير القلماوي مرجع حديث .

أما بالنسبة للمصادر فإنها تصنف كذلك في نوعين متمايزين ، دون أي اعتبار للقدم والحداثة ، هما المصادر الأساسية والمصادر المساعدة .

فالمصادر الأساسية « هي التي استهدف بها أصحابها الجانب الأدبي بدءاً » . وأما المصادر المساعدة فهي التي « تتمثل في نصوص أدبية وهامة ، مبثوثة في

مظان غير أدبية ، من المعاجم وكتب النحو واللغة أو الجغرافيا والتاريخ »ـ [1]

وهكذا نحصل أخيراً على المصطلحات التالية : المراجع العامة ـ المراجع الخاصة ـ المراجع الأصيلة ـ المراجع المساعدة ـ المراجع القديمة ـ المراجع الحديثة ، ثم المصادر الأساسية والمصادر المساعدة .

ولكن هل حلت هذه المصطلحات الإشكال ؟

كلا ، فإن كتب المعاجم ـ مثلا ـ التي عدت في مرة « مراجع عامة » قد عدت من زاوية أخرى « مصادر مساعدة » . ولا يستقيم أن يكون هناك « مصطلحان » مترادفان .

وفي رأيي أن كل دارس يستطيع أن يحدد مصادره ومراجعه في كل حالة وفقاً لطبيعة دراسته ولمنهجه في هذه الدراسة . وعند هذا يصبح كل كتاب يمده بالمادة الأولية ـ أي مادة الدراسة ـ « مصدراً » ، وكل كتاب يلقي أضواء على هذه المادة ، أو يقول فيها رأياً ، فهو ـ بالنسبة إليه ـ « مرجع » .

ولنضرب مثالاً لهذا . فالدارس الذي يريد أن يدرس شعر ابن الرومي ـ مثلاً ـ يكون ديوان الشاعر وما اتصل بحياته من أخبار « مصدرا » له ، في حين يكون كتاب ككتاب « ابن الرومي ، حياته من شعره » للأستاذ عباس محمود العقاد « مرجعاً » . ولكن هب أن موضوع هذه الدراسة هو « الدراسات الأدبية في كتابات العقاد » فإن كتاب « ابن الرومي ، حياته من شعره » يصبح « مصدراً » من مصادر هذه الدراسة ، وتصبح هذه الدراسة نفسها ـ فيما بعد ـ « مرجعاً » .

وعلى هذا الأساس تكون تسميتنا للكتب التي سنعرض لها في هذا الكتاب بالمصادر لها ما يبررها .

---

(١) الطاهر أحمد مكي : نفسه ص ١٠٣ .

المحاضرة الثانية

المفضليات

١ ـ المفضليات

(أ) تنسب هذه المختارات إلى المفضل بن محمد بن يَعْلَى بن عامر بن سالم الضبي . وتاريخ ميلاده غير معروف ، وإن كان المرجح أن يكون ميلاده في أواخر العقد الأول من القرن الثاني . أما تاريخ وفاته ففيه خلاف ، إذ تجعله بعض الروايات عام ١٦٨ هـ ، في حين يرجح محققا الكتاب — من استقراء بعض الشواهد — أن وفاته كانت عام ١٧٨ هـ . (١)

والمفضل الضبي من جيل الرواة العلماء الأول . وهو رأس مدرسة الكوفة ، ولكنه ورد كذلك على البصرة فأخذ عنه علماؤها . قال ابن سلام الجُمَحي : « وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » . (٢) وكذلك وفد الضبي إلى بغداد في زمن الخليفة العباسي المنصور .

كان راوية عالماً بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها . وقد أخذ عنه كثيرون من علماء الطبقة الثانية ، وفي مقدمتهم الفرّاء والكسائي وابن الأعرابي ، وإليه ينتهي إسناد كثير من الروايات الشعرية لدواوين الشعراء ودواوين القبائل على السواء .

---

(١) انظر مقدمتهما للمفضليات ، ط ٤ دار المعارف بمصر ، ص ٢٦ .

(٢) طبقات الشعراء ، ط مصر ، ص ١٦ .

(ب) أما كيف اختار المفضل القصائد التي تضمها هذه المجموعة فلذلك قصة .

فقد كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد خرج في البصرة على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وخرج معه كثير من العلماء ، منهم المفضل . ولكن المنصور ظفر بإبراهيم أخيراً ونكل به وبأهله . وكان إبراهيم يتخفى ذات مرة عند المفضل ، وكان المفضل يتركه ويخرج . وفي إحدى المرات كان عليه أن يخرج إلى ضيعة له لبضع أيام فقال له إبراهيم : إنك إذا خرجت ضاق صدري . فأخرج إليّ شيئاً من كتبك أتفرج به . فأخرج المفضل إليه كتباً في الشعر والأخبار يقال إنها كانت ملء قمطرين . فلما عاد وجده قد علّم على سبعين قصيدة اختارها . وكان له ذوق حسن في الشعر . ويبدو أن المفضل استخرج هذه القصائد السبعين ثم زاد عليها عشرا فيما بعد . فإنه عندما ظفر المنصور بإبراهيم ظفر كذلك بالمفضل . ولكنه عفا عنه ، وألزمه ابنه وولي عهده المهدي يؤدبه . وقد قدم المفضل لتلميذه القصائد الثمانين فقرأها هذا عليه ، ثم قرئت هذه القصائد نفسها على المفضل بعد ذلك ونسبت إليه وعرفت باسمه . ثم قرئت هذه القصائد على الأصمعي « فأقرها وزادها قصائد ، وزاد في بعض قصائدها أبياتاً ، واختار قصائد أُخر . ثم جاء مَنْ بعد الأصمعي وزادوا في القصائد — أصلها ومزيدها — أبياتاً دخلت في روايتي المفضل والأصمعي ، حتى اختلطت . فلم يكن ميسوراً أن يجزم جازم بما كان أصلاً وما كان مزيداً ، إلا قليلا » . (٣)

(ج) وتضم النشرة العلمية للمفضليات ، التي صدرت طبعتها الأولى عن دار المعـــارف بمصر سنة ١٩٤٢ بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون — تضم مائة وثلاثين قصيدة . وقد كان المعروف منها إلى

---

(٣) المفضليات — مقدمة المحققين ، ص ١٣ .

عهد ابن النديم ١٢٨ قصيدة ، قد تزيد وقد تنقص [١] . ومعظم شعراء هذه المجموعة جاهليون ، وقليل منهم مخضرمون ، وأقل منهم إسلاميون . وهناك ستة وعشرون شاعراً لا تضم المجموعة لكل منهم سوى قصيدة واحدة ، وثمانية وعشرون شاعراً وردت لكل منهم قصيدتان، وتسعة شعراء وردت لكل منهم ثلاث قصائد ، وشاعر واحد وردت له أربع قصائد ، هو ربيعة بن مقروم الضبي ، وشاعر واحد وردت له خمس قصائد ، هو المرقش الأصغر ، وشاعر واحد وردت له اثنتا عشرة قصيدة ، هو المرقش الأكبر.

وتضم هذه المجموعة أربعين مقطوعة لا يزيد عدد أبيات كل منها عن عشرة ، وثلاثا وأربعين قصيدة يتراوح عدد أبيات كل منها بين ١١ ، ٢٠ بيتاً ، وإحدى وعشرين قصيدة تتراوح بين ٢١ ، ٣٠ بيتاً ، وعشر قصائد تتراوح بين ٣١ ، ٤٠ بيتاً ، وسبع قصائد تتراوح بين ٤١ ، ٥٠ بيتاً ، وثماني قصائد مطولات ، تتراوح بين ٥١ ، ١٠٨ بيتاً . وأطول قصيدة في هذه المجموعة هي قصيدة سُوَيْد بن أبي كاهل ، وعدتها مائة وثمانية أبيات ، ومطلعها :

بسطتْ رابعـــةُ الحبـــل لنـــا   فوَصلْنا الحبل منها ما اتّسعْ

وأقصر مقطعة في هذه المجموعة تقع في بيتين ، وهي للمرقش الأكبر ، وفيها يقول :

أبأْتُ بثعلبةَ بـــن الحُشَا   م عمرو بنَ عوف فزال الوهلْ

دماً بدم ، وتعفّـــى الكلـــومُ   ولا ينفع الأوّلِيـــن المَهَـلْ

---

(١) انظر الفهرست ص ١٠٢ ونحن نقرأ في طبعة دار المعارف بعد القصيدة السادسة والعشرين بعد المائة : تمت المفضليات وما أدخل خلالها من الزيادات برواية الأنباري الكبير أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار ، عن شيوخه أبي عكرمة عامر بن عمران الضبي وغيره . ثم هذه أربع قصائد ملحقات بها وجدت في بعض نسخ المفضليات . (ط ٤ ص ٤٢٩) .

يذكر فيهما أخذه بالثأر لابن عمه ثعلبة الذي قتله المهلهل التغلبي بمقتله عمرو بن عوف من بني تغلب .

(د) ومن الواضح أن هذه المجموعة تضم العدد الأكثر من القصائد الكاملة ؛ بل لعل القصائد الكاملة هو هدفها الأول ، وأن ما ورد فيها من مقطعات لم يكن نتيجة اجتزاء المفضل أجزاء من قصائد كاملة ، فربما كانت المقطعة نفسها هي كل ما قاله الشاعر نفسه في مناسبته ، كما يظهر لنا من بيتي المرقش الأكبر .

وإلى جانب عمد المفضل إلى اختيار القصائد لا نجده يورد للشاعر الواحد أكثر من ثلاث قصائد إلا في النادر . وهذا معناه أنه لم يقيد نفسه بعدد ثابت مما يختاره من كل شاعر ، بل كان يتحرك في شعره بحرية فيختار أفضل ما عنده .

وكذلك لم يحدد المفضل اختياره بالأشعار التي قيلت في موضوع أو مواضيع بعينها ، بل كان طليقاً في هذا الاختيار .

أما ترتيب هذه القصائد في الكتاب فليس في وسعنا أن نستدل عليه على النحو الذي وضعه المفضل ؛ فبعد أن تناولت أيدي الرواة القصائد الثمانين التي كان المفضل قد اختارها بالزيادة فيها والإضافة إليها — على نحو ما صنع الأصمعي بها — أصبح من الصعب القطع بأي القصائد الثمانين هي تلك التي اختارها المفضل . ومحققا الكتاب يقطعان بأنها وإن كانت متضمنة فيه فإنها قطعاً لا ترد في صدره ، ولا ترد مجتمعة (١) . ومن هنا لا يتمثل أمامنا ترتيب بعينه لقصائد الكتاب (٢) ، وربما لم يفكر المفضل نفسه — وقد عرفنا الطريقة التي تم بها

---

(١) انظر المفضليات ، دار المعارف بمصر ؛ ط ٤ ص ١٤ من مقدمة التحقيق .

(٢) واختلاف الترتيب واضح كذلك في شروح المفضليات . قارن شرح المرزوقي وشرح الأنباري مثلاً .

اختيار هذه القصائد — في شيء من أمر هذا الترتيب .

(هـ) ومع كل هذا فللمفضليات قيمة تاريخية وأدبية كبيرة . ولم يكن رواجها بين الناس في عصر المفضل وفي العصور التالية إلا نتيجة لاستشعار الناس هذه القيمة .

أما من الناحية التاريخية فإنه أول كتاب كبير يضم مختارات من عيون الشعر القديم ، الجاهلي والمخضرم والإسلامي بروايات موثوق بها .

وأما من الناحية الأدبية فإنه تضمن قصائد كاملة كانت تعد أروع ما في الشعر القديم من قصائد ، أي أنها تعكس لنا المثل الشعري الأعلى في التصور والذوق العربي ، إذا جاز لنا أن نعد ذوق المفضل وتصوره ممثلين لذوق وتصور عامين .

على أن تفصيلات هذا التصور ومقومات هذا الذوق قد غابت جميعاً عنا ، حيث اكتفى المفضل ومن أكمل المجموعة على غراره بإثبات المختارات دون تقديم الأسباب التي جعلتهم يفضلون ما فضلوا ، بل دون أدنى تعليق . وكان يكون من كمال هذا العمل لو أن كل قصيدة أتبعت بحكم مفصل يبين وجه تفضيلها واختيارها .

وعلى كل حال فقد كانت هذه المجموعة المختارة فاتحة لمجاميع أخرى تسير على نفس الدرب ، سنعرض لها بعد قليل .

(و) وللأهمية التي بلغتها المفضليات ظفرت في عصر الشروح باهتمام كثير من الشراح . وأول من شرحها أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت ٣٠٥ هـ) . وقد حقق هذا الشرح ونشره المستشرق شارل ليال ، وأصدرته مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٢٠ على نفقة جامعة أكسفورد . وهناك بعض الإشارات القديمة التي تنسب هذا الشرح إلى ابنه أبي بكر بن الأنباري ، وهو خطأ ؛ فلم تكن وظيفة الابن سوى تحرير ما

صنفه أبوه ، وإضافة بعض الاشارات في بعض الأحيان [1] .

ويلي شرح الأنباري هذا للمفضليات شرح أبي جعفر بن النحاس (ت ٣٣٨ هـ) ثم شرح أبي علي المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) . والمرزوقي قليلاً ما يشير إلى من سبقه إلى شرح المفضليات ، ولكن لا مجال للشك في أنه اطلع على شرح الأنباري ، الذي كان قد وضع قبل شرحه بقرن من الزمان [2] .

ويلي هذا الشرح شرحان آخران ، أحدهما لأبي زكريا يحيى التبريزي (ت ٥٠٢) وأبي الفضل الميداني (ت ٥١٨) .

(ز) وقد طبعت المفضليات ست طبعات :

١ — طبع الجزء الأول منها لأول مرة في ليبتسج سنة ١٨٨٥ ، وقد أخرجه المستشرق توربكه .

٢ — طبعت طبعة تجارية مصر سنة ١٩٠٦ .

٣ — طبعت في مصر كاملة في جزئين سنة ١٣٣٤ هـ — ١٩١٥ م مع تعليق يسير عليها من أبي بكر بن عمر داغستاني المدني .

٤ — طبعة المستشرق ليال ، وقد سبقت الإشارة إليها .

٥ — طبعت في مصر كاملة سنة ١٩٤٥ هـ مع شرح موجز لحسن السندوبي .

٦ — طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٢ مع تحقيق وشرح موجز للأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون .

وقد ذكر الدكتور عمر الدقاق [3] أن الدكتور فخر الدين قباوة الأستاذ بجامعة حلب قد عمد إلى تحقيق شرح المفضليات للخطيب التبريزي معتمداً على نسخة كتبها المؤلف بخطه ، وما يزال هذا التحقيق مخطوطاً .

---

(١) انظر مقدمة ليال لشرح الأنباري للمفضليات ، ص ١٤ .

(٢) انظر مقدمة ليال لشرح الأنباري ، ص ١٦ .

(٣) انظر مصادر التراث العربي ص ٤٥ الهامش .

المحاضرة الثالثة

٢- الأصمعيات

٣- جمهرة أشعار العرب

٢ - الأصمعيات

(أ) الأصمعيات هو الكتاب الذي ينسب إلى الأصمعي أبي سعيد عبد الملك ابن قُرَيب .

وقد ولد الأصمعي في سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وتوفي بالبصرة ، وقيل بمرو ، في سنة ٢١٦ هـ على الأرجح .

وهو من الرعيل الأول من الرواة العلماء بالبصرة ، غزير المحفوظ والرواية ، عالم بالشعر لا يشق له غبار . وقد سمع من أبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية وحماد بن زيد وغيرهم من الرواة العلماء ، كما سمع من الأعراب ومن الشعراء [١] مباشرة . وكذلك روى عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن عبدالله بن قريب ، وأبو عُبيد القاسم بن سلاّم ، وأبو الفضل الرياشي ، وأبو حاتم السجستاني وغيرهم . وقد كان من الطبقة الأولى من الرواة العلماء الذين ينتهي عندهم الإسناد في كثير من الأحيان .

والمؤلفات التي تروى للأصمعي — سوى الأصمعيات — كثيرة [٢] . وقد طبع منها : كتاب خلق الإنسان ، كتاب خلق الإبل ، كتاب الخيل ، كتاب الشاء . كتاب الوحوش . كتاب الأضداد ، كتاب القلب والإبدال ،

---

(١) راجع « الأصمعيات » ؛ دار المعارف ط ٣ ص ٣٢ .

(٢) ذكرها ابن النديم في الفهرست ، ص ٨٨ .

كتاب النبات ، كتاب الدارات ، كتاب النخل والكروم ، كتاب فحولة الشعراء .

(ب) والأصمعيات كتاب على نسق المفضليات ، يضم مختارات من الشعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي ، تبلغ اثنين وتسعين قصيدة ومقطعة ، لواحد وسبعين شاعراً ، منهم أربعة وأربعون شاعراً جاهلياً ، وهم الأغلبية ، وأربعة عشر شاعراً مخضرماً، وستة شعراء إسلاميين وسبعة مجهولون . ومن مجموع هؤلاء الشعراء أربعة وخمسون شاعراً أورد الأصمعي لكل منهم نموذجاً واحداً ، وأربعة عشر شاعراً أورد لكل منهم نموذجين ، وشاعران أورد لكل منهما ثلاث قصائد ، هما عبد الله بن عنمة وعمرو بن معد يكرب ، وشاعر واحد أورد له أربع قصائد هو خُفَاف بن نُدْبة .

ومن القصائد والمقطعات الاثنتين وتسعين التي تضمها الأصمعيات اثنتان وأربعون مقطعة تتراوح الأبيات فيها بين بيتين وعشرة ، وعشرون قصيدة تتراوح الأبيات فيها بين ١١ ، ٢٠ بيتا ، وثماني عشرة قصيدة تتراوح الأبيات فيها بين ٢١ ، ٣٠ بيتاً ، وعشر قصائد تتراوح بين ٣١ ، ٤٠ بيتاً ، وقصيدتان اثنتان إحداهما ٤٣ بيتاً والأخرى ٤٤ بيتاً . ومجموع أبيات الأصمعيات ١٤٤٢ بيتاً ، وهي تزيد قليلاً عن نصف عدد أبيات المفضليات .

وبتحليل هذه الأرقام جميعاً يتضح لنا أن الأصمعي سار على نهج المفضل في الاهتمام بالشعر الجاهلي ، ولكن نسبة عدد المقطعات عنده كبيرة ، هذا فضلا عن أن أطول قصائد الأصمعي لم تتجاوز أربعة وأربعين بيتاً ، في حين نيفت بعض قصائد المفضليات على مائة بيت ، وتجاوز عدد لا بأس به منها خمسين بيتاً .

ولعل هذا كله ما جعل ابن النديم [1] يصف الأصمعيات بأنها ليست

---

(١) الفهرست ، ص ٨٩ .

بالمَرْضية عند العلماء ، معللا ذلك بقلة ما فيها من الغريب ، وباختصار روايتها ..

(ج) وأمام التداخل الكبير بين المفضليات والأصمعيات ، ولأن النسخة الخطية التي طبعت عنها الطبعة الأوربية من الأصمعيات ، وكذلك المخطوطة التي طبعت عنها طبعة دار المعارف بمصر ، ليس بهما إسناد يوضح طريق روايتهما عن الأصمعي — فليس هناك ما يدل على أن الأصمعي قد قصد قصداً إلى تصنيف مجموعة من القصائد يختارها على غرار ما صنع المفضل ، وأنه ما قصد إلا التوسع في مجموعة المفضل .

وأيا كانت الحقيقة فإن الأصمعيات لم تبلغ شهرة المفضليات ، ولم تظفر — في عُهد الشروح — باهتمام الشراح مثلما حدث بالنسبة للمفضليات .

على أن الأصمعيات تشترك مع المفضليات في خلوها من أي إشارة إلى أسباب الاختيار ووجه التفضيل لما تضمنت من أشعار .

(د) وقد صدرت للأصمعيات طبعتان : الطبعة الأوربية ، وقد صدرت في مدينة لايبتسج بألمانيا في سنة ١٩٠٢ . بعناية المستشرق الألماني فلهلم ألفارد ، ضمن الجزء الأول من مجموعته الشعرية المسماة « مجموع أشعار العرب » . وقد أُخذت على هذه الطبعة مآخذ تتعلق بأمانة المحقق فيما سمح به لنفسه من تغيير في ترتيب القصائد وحذف بعضها على أساس أنه مكرر في المفضليات .

أما الطبعة الثانية فقد صدرت عن مخطوطة في دار الكتب المصرية ، حققها الشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ عبد السلام محمد هارون . وصدرت عن دار المعارف بمصر في سنة ١٩٥٥ . وقد ترجم المحققان لكل شاعر في هذه المجموعة ترجمة موجزة ، وخرّجا شعره ، وشرحا الغريب فيه ، ثم ألحقا بالكتاب عدداً من الفهارس المفيدة ، بخاصة في الطبعة الثانية التي صدرت في سنة ١٩٦٣ .

٣ ـ جمهرة أشعار العرب

(أ) ينسب هذا الكتاب إلى أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي . والمعلومات عن هذا الرجل ضئيلة للغاية ؛ فلم يترجم له واحد من كتب الطبقات والرجال ، وأول إشارة إليه إنما وردت في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) .

وقد حاول الدارسون المحدثون أن يستنبطوا ما يحدد الحقبة الزمنية التي عاش فيها ، لكنهم اختلفوا في هذا اختلافاً بينا . ذكره سليمان البستاني في مقدمة الإلياذة ، وجعل وفاته نحو سنة ١٧٠ هـ [١] . وفي نفس الاتجاه سار بطرس البستاني في كتابه « أدباء العرب في الأعصر العباسية » ، إذ جعله من أهل العصر العباسي الأول [٢] . وكذلك ذهب الدكتور أحمد أمين في كتابه « ضحى الإسلام » [٣] . ويرجح الدكتور عمر الدقاق أن أبا زيد من رجال القرن الثالث [٤] . وقبله كان الدكتور ناصر الدين الأسد قد انتهى — بعد

---

(١) انظر جمهرة أشعار العرب — دار صادر ببيروت ١٩٦٣ — مقدمة الطبعة ص ٥ .

(٢) نفسه .

(٣) انظر عمر الدقاق : مصادر التراث العربي ، ص ١٨٥ .

(٤) نفسه ، وقد ذكر في معجمه للمؤلفين الملحق بالكتاب أن وفاته في سنة ٢٣٠ هـ ولكن بتردد . ومعنى هذا أن يكون القرشي قد توفي قبل ابن الأعرابي بعام ، في حين أنه لم يرو عنه مباشرة .

تحقيقات كثيرة — إلى أن أبا زيد من رجال القرن الرابع [1] .

وكان من الممكن حسم هذا الخلاف من خلال التعرف على سلاسل الرواة الذين أخذ عنهم القرشي ، لكن ذلك غير ميسور في الكتاب على نحو كاف . فكثيراً ما نقرأ فيه : « قال أبو عبيدة ... » و « قال المفضل ... » [2] أو نقرأ قوله : « وذُكر عن أبي عبيدة .. » [3] أو « وذكر ابن دأب أن .. » [4] . فهو يسقط — على هذا النحو — حلقات الرواية ، ويسند القول إلى قائله مباشرة . ومع ذلك ففي وسعنا أن نتوقف عند ثلاث حالات قد يكون لها شيء من الدلالة . فقد قال في مرة : « حدثنا سنيد عن حزام بن أرطاة عن أبي عبيدة » [5] . وقال في مرة أخرى : « حدثنا سنيد بن محمد الأزدي عن ابن الأعرابي » . [6] وفي مرة ثالثة قال : « عن المقنع عن أبيه عن الأصمعي .. » [7]

ومعنى هذا أن بينه وبين أبي عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) راويين . وكذلك هناك راويان بينه وبين الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) . وبينه وبين ابن الأعرابي (٢٣١هـ) راو واحد . ولأن ابن الأعرابي تأخر عن صاحبيه فربما كان هذا هو السبب في أن القرشي لم يكن بينه وبينه سوى راو واحد ، في حين احتاج الأمر إلى راويين بين القرشي وبين كلا أبي عبيدة والأصمعي . وينتهي بنا هذا إلى أن القرشي ربما عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وشهد طرفاً من القرن الرابع .

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي . ص ٥٨٧ .
(٢) انظر الجمهرة . ص ٨٠ .
(٣) نفسه ص ٨٢ .
(٤) نفسه ص ٦٧ .
(٥) نفسه ص ٤٥ .
(٦) نفسه ص ٣٠ .
(٧) نفسه ص ٣٦ .

المعاجم

١-معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي

نبذة عن حياة الخليل:

رغم شهرة الخليل بالبصرة فإنه قد ولد في مدينة أخرى -هي مدينة عمان على شاطئ الخليج الفارسي عام ١٠٠هـ، ولكن نشأته بالبصرة، وتلقيه العلم بها تلميذًا، ورياسته لمدرستها شيخًا جعلته يشتهر بهذا اللقب، وقد كان الخليل من أولئك العلماء القلائل الذين انحدروا من أصل عربي صرف.

لم يكن الخليل على حظ كبير من الغنى والسعة، فقد رضي وقنع بعيشته الزهيدة المتواضعة. وذلك لكثرة انشغاله بالعلم والتفكير، ولرضاه النفسي بحالته كما هي. وهذا ما يفسر لنا السبب في رفضه أن يكون مؤدبًا لولد الأمير سليمان بن عبد الملك حينما طلب منه ذلك، وفي هذا يقول الخليل نفسه:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال

وقد ظهرت شخصية الخليل قوية واضحة في تأليفات تلاميذه. فهذا سيبويه ينقل في كتابه الكثير عن الخليل. بل إن كثرة هذا النقل بدرجة ملحوظة جعلت بعض النقاد يعتبرون أن سيبويه قد جمع فقط آراء شيوخه الذين كان أهمهم الخليل، ودونها في سجل هو ما عرف بعد باسم "الكتاب"،

ولم يبرز الخليل في العلوم اللسانية من نحو ولغة، وشعر فحسب بل كان له دراية واسعة بالعلوم الشرعية والعلوم الرياضية، وأكثر من هذا كان بارعًا في الموسيقى والنغم، وإن نظرة واحدة إلى الطريقة التي وضع بها علم العروض الذي اتفق الجميع على أنه هو الذي ابتدعه دون سابق مثال لتدلنا على أن الخليل كان ذا عقلية مبتكرة. وقد روى لنا

في هذا أنه كان قد مر يومًا بمداد، فاستهواه دق المطرقة المنتظم، فلما حاول أن يربط بين هذه النغمات الرتيبة وبين الأوزان في الشعر العربي تم له ذلك باختراع علم العروض. وكانت التفصيلات التي استعملها الخليل كموازين للشعر، وتقطيع الأبيات على حسب تلك الموازين الذي يؤدي أحيانًا إلى شطر الكلمة الواحدة، أو ضم كلمة مع جزء أخرى لتكون وحدة عروضية معينة، كانت كل هذه الأشياء الجديدة على اللغويين الأول أشبه شيء بالألغاز. فقد ذكر لنا أن بعض علماء اللغة رحل إلى الخليل ليتعلم منه فنه الجديد، ولما لم يجد الخليل عنده الاستعداد الكافي لتقبله أراد أن يصرفه عنه بإشارة لطيفة حيث طلب منه أن يقطع هذا البيت:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

ففطن ذلك اللغوي إلى غرضه، وترك علم العروض الذي لم يستطع تفهمه. حتى طبقة المثقفين من غير العلماء كانت تستغرب هذا الشيء الجديد الذي لم يكن مألوفًا ولا متعارفًا. فقد روي أن الخليل كان يومًا منشغلًا بتقطيع بعض الأبيات، فدخل عليه ابنه فاستوضح منه هذا الأمر، فما كان من الخليل إلا أن ترك له بطاقة مسجلًا عليها هذان البيتان:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت أعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وبالإضافة إلى براعة الخليل في اللغة، والموسيقى نجد أنه كان أيضًا رياضيًّا عارفًا بعلم الحساب إلى حد يعتبر فيه سابقًا لأوانه، فقد ذكر أنه وضع محاولة ابتكر فيها وضع نظام حسابي خاص يكون من السهولة بحيث لو عرفته الجارية، وذهبت به إلى السوق، فإنه لا يستطيع أحد أن يغالطها الحساب.

وإن عقلية فذة كعقلية الخليل لا يستبعد أن يكون صاحبها مبتدعًا لأسس العروض، ومبتكرًا للتنظيم المعجمي. بل إن أحد المستشرقين من فرط إعجابه بنظريات الخليل صرح بأن نظام العين ليس غريبًا أن يكون من عمل الخليل بل الغريب ألا يكون منسوبًا إليه.

أما مؤلفات الخليل الأخرى فلم يصلنا منها شيء، وقد وردت أسماؤها متناثرة في كتب الطبقات، وقد جمعتها دائرة المعارف الإسلامية في ستة كتب هي:

١- النقط والشكل.

٢- النغم.

٣- العروض.

٤- الشواهد.

٥- الإيقاع.

٦- الجمل.

طريقة الخليل في "العين":

إن المبادئ الرئيسية التي بنى عليها الخليل ترتيبه في كتاب العين يمكن حصرها إجمالًا في أمور أربعة:

أولًا: رتبت الكلمات ترتيبًا أبجديًا -والمراد بالترتيب الأبجدي المعنى الواسع لهذا التعبير. فقد شهد عصر الخليل كتيبات سجلت فيها الكلمات بحسب موضوعاتها ومعانيها.

أما الخليل فقد رأى أن هذا غير عملي بالنسبة لحصر جميع المفردات اللغوية في كتاب خاص، ورأى أن ترتيب الكلمات حسب حروفها يكون أفيد وأدق. ولكنه لم يختر لذلك

الأبجدية المألوفة على نظم الحروف حسب مخارجها إلى مجموعات تبدأ بالمجموعة الحلقية التي أولها في رأيه العين، وتنتهي بالمجموعة الشفوية التي ختمها بالميم، وتنظيم الكلمات حسب هذا المبدأ ظل متبعًا فترة من الزمن ثم عدل عنه.

ثانيًا: نظمت الكلمات تبعًا لحروفها الأصلية فقط بقطع النظر عن الأحرف الزائدة فيها. وهذا المبدأ ظل متبعًا في كل مراحل تطور المعجم العربي من وقت الخليل إلى يومنا هذا.

ثالثًا: إن تبويب الكلمات خضع لنظام الكمية. فمثلًا في باب العين الذي عالج فيه الكلمات المشتملة على حرف العين نجده قد سجل الكلمات حسب التقسيم الآتي:

١- الثنائي.

٢- الثلاثي الصحيح.

٣- الثلاثي المعتل.

٤- اللفيف.

٥- الرباعي.

٦- الخماسي.

٧- المعتل.

أما الثنائي فقد قصد به الخليل ما اجتمع فيه حرفان من الحروف الصحيحة، ولو مع تكرار أحدهما في أي موضع فيشمل هذا كلمات قد، قد، قد فكلها تعالج في موضع واحد، وأراد بالثلاثي الصحيح ما اجتمع فيه ثلاثة حروف صحيحة على أن تكون من أصول الكلمة أما الثلاثي المعتل، فقصد به ما اجتمع فيه حرفان صحيحان وحرف واحد

من حروف العلة، سواء كان حرف العلة في الأول أو الوسط أو الآخر وبعبارة أخرى يشمل هذا ما عرف عند الصرفيين بالمثال والأجوف والناقص.

وأما بالنسبة للفيف فقصد به ما اجتمع فيه حرفا علة في أي موضع، فيشمل على هذا اللفيف المقرون والمفروق. ومن هنا نعلم أن اسطلاحات أصحاب المعاجم تخالف من بعض الوجوه اصطلاحات الصرفيين.

وأما من حيث الرباعي والخماسي فلم يختلف فيه تعبير الفريقين. أما القسم الأخير وهو المعتل فقد أدخل فيه أصحاب المعاجم الذين اتبعوا طريقة الخليل –إجمالًا– الهمزة بحجة أنها قد تسهل إلى أحد الحروف المعتلة.

رابعًا: عولجت الكلمة ومقلوباتها في موضع واحد فمثلًا نجد الكلمات:

ع ب د، ع د ب، د ب ع، د ع ب، ب ع د، ب د ع كلها يمكن أن تعالج نظريًّا تحت عنوان واحد بقطع النظر عما نطقت به العرب منها فعلًا وعما لم تنطق به، فالنوع الأول سماه الخليل "مستعملًا"، والنوع الثاني سماه "مهملًا" ويعرف هذا التنظيم باسم "التقليبات"، ويمكن الرجوع إلى هذه المفردات مثلًا تحت حرف العين مجموعة "ع د ب"؛ لأن العين أسبق الجميع في الأبجدية الصوتية التي وضعها الجليل تليها الدال ثم الباء.

وجميع من تبع نظام العين سار في التقليب على قاعدة وضع المفردات المأخوذة من أصل ثلاثي واحد تحت الحرف الذي هو أسبقها من حيث المخرج ما عدا ابن دريد الذي اتبع في تقليباته نظام وضع المفردات المتحدة الأصل تحت الحرف الذي هو أسبقها في الأبجدية العادية. فهنا مثلًا نجده وضع تلك المفردات الستة المذكورة سابقًا تحت مجموعة "ب د ع"، فهذا اختلاف فرعي يجعلنا نعتبر ابن دريد صاحب جمهرة اللغة أيضًا من المؤلفين الذين اتبعوا في ترتيبهم نظام كتاب العين.

المحاضرة الخامسة

٢-جمهرة ابن دريد:

هذا هو ثاني معجم وصل إلينا بعد كتاب العين من المعاجم التي اتبعت نظام التقليبات.

أما مؤلفه فهو محمد بن الحسين بن دريد البصري. وقد كان أبوه من أعيان التجار في مدينة البصرة. واستطاع أن يؤدب ولده بآداب العصر الذي عاش فيه، وابن دريد كالخليل من أصل عربي جنوبي -وكان ابن دريد مشهورًا بسعة الحفظ، وقوة الذاكرة، فقد روي عنه أنه كانت تقرأ عليه دواوين العرب فيحفظها من أول مرة.

كما قد أخبر هو عن نفسه بأن شيخه كلفه يومًا بحفظ معلقة الحارث بن حلزة حتى يرجع من غدائه، فلما رجع الشيخ وجد التلميذ قد حفظ الديوان بأجمعه. وقد أمكنه أن يستغل ذاكرته في ملء كتبه بالألفاظ الغريبة خصوصًا ما يعرف باسم النوادر، وقد ظهر هذا جليًّا في مؤلفيه "كتاب الاشتقاق وكتاب الملاحن".

كتاب "الاشتقاق":

اهتم ابن دريد في هذا الكتاب بعقد الصلة بين الاسم العلم، وبين ما يشابهه مادة من الصفات أو الأفعال. وقد أداه شغفه بالاشتقاق إلى أن يفترض أن الأعلام كلها منقولة، وأن لها دلالات أخرى بجانب دلالتها على مسمياتها.

فلم يلتزم طريقة واحدة بالنسبة لحرف الهمزة، فلم يعتبرها من حروف العلة كلية كما فعل متقدمو اللغويين، ولا من الحروف الصحيحة كلية كما فعل المتأخرون فمثلًا ذكر في باب الثنائي الأصول: أب، أت، أث، إلخ. وعندما جاوز الثنائي إلى غيره أغفل ذكر الهمزة كحرف صحيح.

وكان ينبغي على ابن دريد –حيث اتبع نظام التقليبات أن يسير على ترتيب أبجدية الخليل الصوتية حيث إن نظام التقليبات مبني على أساس صوتي، إذ يعرف به المستعمل من المهمل بواسطة القوانين الصوتية التي يخضع لها تأليف الحروف في الكلمات العربية.

ومن الغريب أن ابن دريد وضع بعض الكلمات المشتملة على تاء التأنيث تحت ما أصله الهاء مثل: حبة، عفة ولكنه ذكرهما أيضًا مع المجموعين ح ب، ع ف، ويقول المستشرق كرينكو الذي حقق الجمهرة: إن الدافع لابن دريد في ارتكاب هذا هو جهل الناس في عصره فلم يكونوا يستطيعون أن يفرقوا بسهولة بين ما فيه الهاء أصلية وبين ما فيه زائدة للتأنيث، فتعمد وضع الكلمة وشرحها في كلا الموضعين أو أحدهما، ولكنا لا نرى هذا سببًا معقولًا لذلك التجاوز، والانحراف عن عرف اللغويين، ولا يمكن أن يتخذ جهل الناس وسيلة لارتكاب مثل هذا الخطأ.

أما من ناحية الاشتقاق فنرى ابن دريد قد تعسف أحيانًا في توضيح معاني بعض الكلمات من حيث اشتقاقها، وعلى الأخص في أسماء الأعلام المنقولة التي حاول أن يربط بينها وبين وما نقلت عنه، ولو اضطر إلى التعقيد أحيانًا، ولكنها لا تبلغ مبلغ منهجه في كتاب الاشتقاق.

وهذه الهنات وأمثالها في الجمهرة قد جعلت ابن جني يرى ابن دريد بأنه لم يكن دقيقًا في الاشتقاق اللغوي، ورأى ابن جني فيه أنه قد ارتكب أخطاء كبيرة في الاشتقاق، وأن ابن جني عندما وقعت له إحدى نسخ الجمهرة أراد أن يكتب عليها بعض التعليقات، ولكن كثرة الأخطاء التي لاحظها جعلته يستحيي أن يذكرها لأحد؛ لأن ابن دريد قبل كل شيء في نظر ابن جني لم يكن له دراية كاملة بعلم الصرف الذي هو أساس الاشتقاق، وبالتالي أساس تأليف المعاجم.

وهذا بالطبع مبالغة كبيرة من ابن جني في حق الجمهرة.

ومهما بلغ رأي ابن جني فيه من الصواب، فإن ابن دريد لم يكن ليخلق الكلمات اختلافًا، أو يصنعها صنعًا كما نعته بذلك معاصره الأزهري في تهذيب اللغة إذ قال عنه: "وممن رمى بافتعال العربية في زماننا ابن دريد".

وفي آخر الجمهرة نجد بابًا عقده المؤلف لما سماه النوادر، وقد قسمه إلى أبواب بحسب الصيغة كما فعل ابن السكيت في "إصلاح النطق"، وهنا لم يراع ابن دريد ترتيبًا أبجديًا في ذكر مفرداته وإن المنقب عن كلمة ق لا يجيد طلبته إلا بسد أن يقرأ معظم الفصل إن لم يكن كله.

وإفراد هذه الفصول تحت باب النوادر جمل ابن دريد يقع التكرار فمثلًا ذكر في النوادر كلمة "وشن" وقال عنها "ويقال الكلب إذا أدخل رأسه في الإناء وشن برشن" وهذا يقترب مما ذكره في سلب الكتاب في مادة "وش ن" حيث قال "ويقال رشن الكلب في الإناء إذا أدخل رأسه فيه".

وتحت العنوان "صيغة فعلة" ذكر كلمة "رجل لمبة" على حين أنه قد ذكرها سابقًا في سلب الكتاب تحت مادة "لعب" ضمن المجموعة ب ل ع. وقد اختتم ابن دريد الفصل الذي فقده للنوادر بذكر موضوعات مختلفة مثل السهام والشجر والنساء.

ويظهر أن باب النوادر برمته كان قطعة من كتاب مستقل لابن دريد ثم أضيف بفعل الرواة إلى الجمهرة على أنهما كتاب واحد. والذي يساعد على هذا أن ابن دريد لم يذكر في مقدمة الجمهرة أنه سيفرد أنواعًا خاصة من الكلمات ليعقد لها بابا أو أبوابا مستقلة في آخر الكتاب، وأياما كان فإن ابن دريد قد خطأ خطوة كبرى في ترتيبه حين ترك المبدأ الصوتي لمبتدأ الأبجدية العادية. وإن كان نظام التقليبات إنما يخدم نظرية المهمل والمستعمل من الألفاظ، تلك النظرية المبنية على قوانين صوتية كما أسلفنا، فلم يكن مناسبًا أن يجمع ابن دريد بين النظاميين، ولكنها على كل حال خطوات إلى الأمام إذ لفتت أنظار اللغويين فيما بعد إلى

الترتيب الأبجدي العادي وكثيرًا ما نلحفظ التشابه الكامل بين أسلوب ابن دريد في شرح الكلمات وبين أسلوب الخليل. وكذلك الحال بالنسبة للشواهد، فالأبيات هي هي مكررة في الكتابين. وهذه ظاهرة عامة في كل كتب اللغة حيث يعتمد بعضها على بعض، ولكنا نلحظ أن ابن دريد كان أمينًا حين صرح بأنه اعتمد كثيرًا على كتاب العين، وهذا ما يجعلنا نستبعد اتهام نفطويه صديق الأزهري حين طعن على ابن دريد، ورماه بأنه سرق كتاب العين مغيرًا ترتيبه تحت عنوان جديد، إذ أن هذا ينطبق أيضًا إلى حد ما على اللسان، والقاموس وغيرهما من كبريات المعاجم.

المحاضرة السادسة

٣- صحاح الجوهري:

حين امتد بنا الزمن إلى عصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى ٣٩٨هـ.

نجد أن ترتيب الكلمات في المعجم العربي اتبع نظامًا آخر. فلم يعد هناك داع للسير على نظام التقليبات، ومن ثم فلم تبق هناك حاجة إلى الأبجدية الصوتية التي اتخذت أساسًا لذلك النظام. وإنما ابتدع الجوهري نظامًا جديدًا اتخذ فيه الترتيب الأبجدي العادي أساسًا، ولكنه جعل ترتيب الكلمات فيه على أساس الحرف الأصلي الأخير في الكلمة. ولنا أن نتجاوز في التعبير، ونسميه ترتيب القافية. وقد قال عنه الجوهري في مقدمته إنه رتب كتابه ترتيبًا لم يسبق إليه.

نشأ الجوهري في القرن الرابع الهجري حيث تلقى علوم اللغة على أشهر علماء عصره أمثال السيرافي، وخاله الفارابي المتوفى، وكان الفارابي قد ألف معجمًا قسمه على نظام الأسماء، والأفعال كما قسم كلا منها على أسس صرفية ونحوية، وقد انتفع به الجوهري أكبر انتفاع.

وقد ساعدت الظروف الجوهري حين ألف معجمه إذ وجد أمامه من الذخيرة اللغوية الشيء الكثير كما أنه سمع من الأعراب في البدو، والحضر حيث رحل إلى الأماكن التي كان فيها بقية من قبيلتي ربيعة ومضر. وهكذا قد أمكنه أن ينقل عن فصحاء العرب كما فعل الأزهري حين أخذته القرامطة أسيرًا.

وقد ذكر لنا الرواة أن الجوهري كان حسن الخط جميله حتى كان يضارع ابن مقلة في ذلك. وكان الناس يتسابقون في اقتناء نسخة من كتابه مكتوبة بخطه، وإن كلفهم ذلك غالي الثمن.

ولئن كان هم أصحاب المعاجم قبل الجوهري إحصاء المفردات، أو المواد اللغوية وتسجيلها في كتبهم كل حسب جهده ومقدرته. ومنهم فريق آخر اقتصر على "الجمهور" المتداول من

المفردات، وفريق ثالث أجمل ما قاله الأولون مفصلًا، فإن الجوهري لم يكن يعنيه حصر كل المواد أو الاقتصار على المتداول، إذ رأى أن بعد العهد بالعربي الفصيح قد أدخل على اللغة ما ليس منها. ولقد بلغ الاختلاط في هذا إلى درجة أن اشتبه "الصحيح" بغير الصحيح. فألف كتابه ليثبت فيه ما ذكره لنا من أنه الفصيح في اللغة.

ولكن هل معنى الاقتصار على نوع خاص من المواد، أو المفردات أن كثيرًا من اللغة لم يدرج في هذا المعجم؟ يرى الفيروز آبادي صاحب القاموس أن الجوهري قد ترك بذلك نصف اللغة.

المحاضرة السابعة

منهج الصحاح:

أ- لقد كان الجوهري أول من استعمل نظام "القافية" في ترتيب الكلمات في كتابه. ولقد فسر هذا بعض المعاصرين المحدثين بأنه يساعد المتأدبين على الكتابة التي كان من أهم خصائصها السجع في تلك الأيام. كما أن من شأنه أن يساعد على وحدة القافية في القصيدة العربية التي قد تبلغ أحيانًا المائة من الأبيات.

ولعلنا في حل من أن نضيف إلى هذا سببًا آخر، وهو أن أي ترتيب لا بد أن يخضع لنظام الزوائد والأصول من الحروف في المفردات. ولقد أدى هذا إلى الارتباك أحيانًا خصوصًا في الرباعي، والخماسي حيث يختلف موضع الكلمة.

في القاموس تبعًا لاعتبار أي الحروف يكون الزائد وما موضعه. وأنه قد يكون من الصعب تمييز ذلك أول الكلمة، ووسطها في بعض الأحيان على حين أن الزوائد في الآخر تكاد تكون محصورة في:

١- علامتي التثنية والجمع.

٢- علامة التأنيث من تاء أو ألف.

ولقد سار الجوهري في ترتيب الأبجدية على النظام المعروف لنا اليوم فيما عدا حرفًا واحدًا هو الواو إذ وضعه بين النون والهاء، فأصبحت الحروف آخر الأبجدية هكذا: ل، م، ن، و، هـ، ي.

وقد اتبع هذا النظام في الأبواب التي رتب فيها الكلمات حسب أواخرها وطبعًا تحت كل باب ذكر حروف الهجاء، ثم بعد ذلك قسم ذلك الحروف إلى فصول كل فصل تبدأ فيه الكلمة

بحرف من حروف الهجاء. ولكنا فوجئنا أنه في الفصول استعمل الترتيب العادي المألوف اليوم.

وتوضيحًا لهذا نذكر بعض الكلمات على سبيل المثال نجد أن ذكر كلمة وجد قبل كلمة هجد.

ب- لقد أراد الجوهري أن يتغلب على مسألة التشكيل التي أتعبت المتقدمين قبله. فنجد مثلًا معاجم الأزهري، وابن دريد وابن فارس قد شكلت فيها الكلمات بالضمة، والفتحة والكسرة في بعض المواضع. ولسنا نعرف ما إذا كان هذا التشكيل من وضع هؤلاء اللغويين أم من وضع من أتى بعدهم من الرواة والعلماء. ثم إن التصحيف قد لعب دورًا كبيرًا في هذا فنجد أن النساخين قد خلطوا بين الضمة والفتحة، وأحيانًا يتركون كتابة الحركة اعتمادًا على أن الذوق يدركها، ثم يأتي من بعدهم فيضع حركة مغايرة ظانًّا أنها الحركة الصحيحة، وأحيانًا يكون رأي المؤلف الأصلي أن يكون حرف ما مفتوحًا، فيأتي من بعده ويرى أن هذا خطأ أو غير صحيح، فيضع ضمة بدلًا منها، ويأتي ثالث فينقل لنا الضمة. ونأخذها منه على أنها تمثل رأي المؤلف الأصلي. لعل هذا أو ما يماثله قد دار بخلد الجوهري فأراد أن يخلصنا منه فوضع نظامًا جديدًا.

يتلخص هذا النظام في أنه لا يضع الحركة على الكلمة بل يذكر نوع الحركة كتابة بعد الكلمة، وقد اقتضاه هذا أن يقتصر على ذكر حركة الحرف المحتمل أكثر من وجه واحد، فمثلًا يقول: "الحباب بالضم"، وهذا يعني أن الحاء مضمومة أما الباء الثانية، فلا بد أنها مفتوحة لورود الألف بعدها. وأما الحرف الأخير فقد ترك للإعراب. وحيث إن هذا التطبيب كان أول محاولة من نوعها لذلك النظام، فمن الإنصاف أننا لا نؤاخذ الجوهري على بعض الهفوات في محاولته. وإنه ليكفيه أن يضع اللبنة الأولى في حل هذه المشكلة. وعلى المتأخرين أن يكملوا هذا البناء. ولقد حقق لنا الفيروزآبادى أخيرًا ما كنا نتوقع فاقتبس هذا النظام وأكمله وطبقه بدقة وعناية. ولنعد لنظام الجوهري الآن فنرى أنه أيضًا عند الكلام

على الفعل الماضي قد ذكر نوع حركة عينه فقط؛ لأنها هي التي تحتاج إلى تبيان. وفي بعض الأحيان قد يذكر مصدر الفعل بجانبه ليدل على التشديد. فإذا قال لنا مثلًا: "قطع تقطيعًا" فإن معنى هذا أن عين الفعل وهي الطاء تكون مشددة.

هذا هو المنهج العام للجوهري في ترتيب المفردات في كتابه، أما من حيث تعريف المفردات، فلم يأت فيه بجديد فقد اقتبس عمن سبقوه أحيانًا مع التصريح بالمصدر الذي أخذ عنه، وأحيانًا يغفل ذلك.

وبمقارنة بعض العبارات بكتاب العين نجد اتفاقًا كبيرًا بين التعبيرين، وهذا يدل في رأينا على أنه نقل عن العين، وإن لم يكن بطريق مباشر بل بواسطة بعض من أخذ عنهم، وصرح بأسمائهم مثل الأزهري، وابن دريد وابن فارس.

أما من حيث المواد التي تركها فقد ذكر الشدياق أن الجوهي ترك كثيرًا من المفردات التي تدخل في باب الصحيح، ولعل هذا في نظر الشدياق يرجع إلى السهو، ولعلنا ندهش إذ نرى أن كثيرًا مما أغفله الجوهري قد ذكره الخليل في العين، وإن المتتبع لحاشية ابن بري أو تكملة الصاغاني ليرى كيف أنهما استدركا على الجوهري كثيرًا من الصحيح الذي تركه مما نجده مدونًا في كتاب العين.

المحاضرة الثامنة

مصادر التراث الأدبي

١- البيان والتبيين

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. فلج في آخر عمره. وكان مشوه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه، وله تصانيف كثيرة، منها:

" الحيوان و " البيان والتبيين و " سحر البيان و " البخلاء " و " المحاسن والأضداد ، وغيرها

ويعد كتاب الحيوان والبيان والتبيين من أواخر مؤلفات الجاحظ، بعد أن أُصيب بالمرض، وعلى الرغم من اصابته بالمرض الذي ألزمه فراشه، لم تفارقه قريحته المتوقدة، وذاكرته القوية، وفكاهاته الساخرة.

ويعد كتاب البيان والتبيين من أضخم مؤلفات الجاحظ، وهو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم ويربو على سائر كتبه. وإذا كان كتاب الحيوان يعالج موضوعا علميا فإن كتاب البيان والتبيين ينصب على معالجة موضوع أدبي. ولكن الجاحظ في هذين الكتابين، شأنه في جميع كتبه، ينحو منحى فلسفيا. فهو لا يقتصر في كتاب الحيوان على أخبار الحيوانات وخصالها وطباعها، بل يتطرق إلى موضوعات فلسفية.

وفي كتاب البيان والتبيين لا يكتفي بعرض منتخبات أدبية من خطب ورسائل وأحاديث وأشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان وفلسفة اللغة.

ويعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، وبالتبيين الإيضاح. وقد عرف الكتاب خير تعريف بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: «هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة» .

بهذا برر الجاحظ طرقه الموضوعات ذاتها في كل جزء من أجزاء الكتاب. فموضوع علم البيان وفلسفة اللغة توزع على الأجزاء الثلاثة: في الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه، وآفات اللسان، والبلاغة والفصاحة. وفي الجزء الثاني تحدث عن الخطابة وطبقات الشعراء. وفي الجزء الثالث تكلم على أصل اللغة وقيمة الشعر. وفي كل جزء من الأجزاء الثلاثة أورد أبو عثمان منتخبات من كلام الأبيناء، خطبا ومقطعات وأحاديث ورسائل وأشعارا، نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء وحمقى، نساك ومتهتكين، أعراب ومتحضرين، رؤساء وسوقة.

وقد جاء كتاب البيان والتبيين استجابة لاهتمام العرب في ذلك العصر بصناعة الكلام لأن الكلام هو الوسيلة المثلى لنشر المبادىء السياسية والعقائد الدينية في زمن كثرت المذاهب واشتد الصراع بين زعمائها واحتدم الجدل بين أنصارها. فمست الحاجة إلى التمرس بالخطابة والمناظرة وإلى وضع أصول لها تتعلم أو يرجع إليها.

ويمكننا القول إن كتاب البيان والتبيين أقدم وأهم محاولة لدراسة علم البيان وفلسفة اللغة. ويعتبر الجاحظ رائدا في هذا المضمار لمن جاء بعده أمثال ابن فارس وابن جني والسيوطي.

وقد سبق دي سوسر إلى القول بأن فقه اللغة يجب أن يكون فرعا من علم أوسع يشتمل على مختلف أنواع الدلالات سماه الجاحظ علم البيان حيث يقول: «والبيان اسم جامع لكل

شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»

وقد حصر الجاحظ أنواع البيان بخمسة لا تزيد ولا تنقص هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال.

وهو يعتبر الإشارة بالجوارح كاليد والطرف والحاجب مرفقا كبيرا يعين الناس في أمور يحاولون سترها عن البعض دون البعض. ولولاها لم يستطيعوا التفاهم في معنى خاص الخاص.

أما الخط أو الكتابة فهو وسيلة التبيين في الكتب، ونقل المعرفة عبر الزمان والمكان، ولولاه لا ندثر العلم. ومن ثم كانت أهمية الكتب وأفضليتها لأن الكتاب يدرس في كل زمان ومكان بينما لا يعدو اللسان سامعه.

ولا يقل الحساب أهمية عن الخط، وبه تعرف منازل القمر والشمس والنجوم وعدد السنين والأيام الخ.

أما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص. فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان».

بقي اللفظ، أهم وسائل البيان، وقد تحدث عنه الجاحظ بإسهاب ودرسه دراسة عميقة شاملة.

وقوام اللفظ الصوت، فكل لفظة تتألف من مجموعة مقاطع، وكل مقطع يتألف من مجموعة حروف، وكل حرف عبارة عن صوت. والصوت ينتج عن حركات اللسان في الفم. يقول الجاحظ موضحا ذلك: «والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا أو منشورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف» .

ويعتني الجاحظ بملاحظة العلل التي تعتري البيان وأهمها الحبسة واللثغة واللكنة واللحن.

والحبسة عقدة تصيب اللسان فلا يستطيع المرء النطق بسهولة، ويثقل عليه الكلام، فينتج عن ذلك عدم القدرة على التعبير جيدا عن أفكاره وإفهام الآخرين. وكان موسى يعاني من هذه العقدة فسأل الله حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته أن يحل تلك العقدة التي كانت في لسانه أو الحبسة التي كانت في بيانه.

ويمكننا أن نقول بإيجاز أن الجاحظ نظر إلى وظيفة التأليف الأدبي من زاوية أخرى خلاف تلك التي نظر منها كتاب عصره، فليست وظيفة الكتابة عنده مجرد إفراغ مزيج من المعلومات التي تدل على ثقافة الكاتب لكي يتثقف بها القارئ، بل تتمثل وظيفتها– بصفة أساسية– في الكشف عن شخصية الكاتب وفلسفته اللغوية أو الكلامية والأدبية من ناحية، ثم في التعبير عن موقفه ازاء أنماط السلوك البشري في ضوء الحياة الاجتماعية التي يعيشها في عصره، ونستطيع أن نضيف الى ذلك وظيفة أخرى وهي امتاع القارئ بالأسلوب الفكاهي والنوادر الطريفة، أدركنا الى أي حد استطاع الجاحظ أن يطور الكتابة الادبية في عصره من ناحيتي اسلوبها واهدافها.

المحاضرة التاسعة

٢- الكامل للمبرد

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه الكامل ،و المذكر والمؤنث، و المقتضب.

قال أبو العباس: من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه، كما قيل: لمحة دالة.

وقد تتلمذ المبرد على الجاحظ ، فكان يجلس اليه ويستمع منه ويروي عنه، وقد كان واسع الاطلاع على الكتب شديد الحرص على اقتنائها، وبعد أن صار المبرد امام النحويين البصريين بعد المازني تتلمذ عليه نفر ممن ذاع صيتهم في الدراسات النحوية واللغوية فيما بعد، ومنهم الزجاج وابن السراج والاخفش الأصغر وغيرهم.

وقد اتفق هؤلاء جميعا على ان المبرد وكان يمتاز بغزارة العلم، وفصاحة اللسان، وحلاوة المخاطبة ووضوح الشرح، والى جانب هذا كله كان يكثر من حفظ الشعر ذواقا له.

واذا كان الجاحظ قد اكتفى بعنوان كتابه(البيان والتبيين) ليكون دالا على الموضوع الذي من أجله ألف كتابه، فإن المبرد قد قدّم لكتابه بمقدمة موجزة ولنها توضح على وجه التحديد مادة الكتاب والغرض من تأليفه، فقد قال: (هذا كتاب ألفناه، يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر موصوف، ومثل سائر ، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، والنية فيه ان نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، ومعنى مستغلق،...)

ومعنى هذا أن المبرد قد أتى بالنصوص المختارة في كتابه لتخدم غرضا لغويا أو نحويا، وهو مجال اهتمامه الأول كما ذكرنا، وهذا يشير الى أن تخصصات علماء هذا العصر كانت قد تحددت وكان كل أديب يعرف مجال تخصصه.

فمنهج المبرد أن يأتي بالنص، كأن يكون حديثاً أو آية أو بيت شعر ، ثم يأخذ في شرحه لغوياً ونحوياً، مستشهداً في ذلك بروائع من الشعر والنثر، وبهذا يمكننا أن نلخص محتوى الكتاب بما يلي:

١-مختارات من الشعر والنثر والأمثال والحكم.

٢-ايضاحات لغوية.

٣-شروح نحوية.

٤-لمحات نقدية.

نبذ من أقوال الحكماء

قال أبو العباس(المبرد) قال بعض الحكماء: من أدب ولده صغيراً سر به كبيراً وكان يقال: من أدب ولده أرغم حاسده.

وقال رجل لعبد الملك بن مروان إني أريد آن أسر إليك شيئاً، فقال عبد الملك لأصحابه: إذا شئتم، فنهضوا، فأراد الرجل الكلام، فقال له عبد الملك قف، لا تمدحني، فأنا أعلم بنفسي منك، ولا تكذبني، فإنه لا رأي لمكذوبٍ ؟ ولا تغتب عندي احداً. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في الانصراف؟ قال له: إذا شئت.

مكانة الكامل

كتاب الكامل أثر خالد من آثار المبرد، ومعلمة كبيرة لمعارف اللغة العربية وعلومها وآدابها وهو يحتل مكانة ممتازة بين مؤلفات العلماء في عصر المبرد وفيما بعده من العصور. وهو

خير ما كتب من هذا النوع في تأريخ الأدب العربي كله، منذ البداية إلى يومنا هذا. وقد ترك الكتاب تأثيراً فوق المتصور في لغة العرب شرقا وغرباً.

الكامل والأندلس

١ – اهتمامهم وعنايتهم بالكامل

كتاب الكامل للمبرد من الكتب، التي حازت إعجاب الأندلسيين، وعنايتهم، فبذلوا جهدهم في دراستها، قرائتها، وروايتها، وانتشارها، وكتبوا لها شروحا أو اختصروها، أو علقوا عليها، وأصلحوا من أخطائها، ونبهوا على أغلاطها، وكفى شاهدا على إعجابهم بالكامل، وعنايتهم به أن جميع النسخ للكامل – مخطوطها ومطبوعها – الموجودة المحفوظة في العالم، المعروفة المكتشفة إلى الآن برواية على بن سليمان الأخفش من تلاميذ المبرد

وقد كان كتاب الكامل للمبرد له انتشارا واسعا، وقبولا عاما عند كافة الطبقات الأندلسية، وكانت النسخ المتداولة عندهم كثيرة جدا، وقد قال المؤرخ العلامة أبن خلدون: " وسمعنا شيوخا في مجالس التعليم. أن أصول هذا الفن " علم الأدب " وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكتاب لأبن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكانت البيان والتبيين للحاجظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة، فتبع لها، وفروع عنها.

ويعد الكامل خير مؤلفات المبرد، وأحسنها، وأغرزها مادة، وفيه من المعلومات التي لاغناء عنها لأحد، والتي يحتاج إليها صاحب كل علم وفن من التأريخ، والحديث، والأنساب والأخبار، والأدب، واللغة، وغيرها. ولا يمكن لأندلسي يحضر درس المبرد فلا يأخذ عنه الكامل.

نموذج من الكتاب

للفرزدق حين طلق النوار

وحدثني بعض أصحابنا عن الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن أبي مخزوم راوية الفرزدق، قال: قال لي الفرزدق يوماً: امض بنا إلى حلقة الحسن، فإني أريد أن أطلق النوار، فقلت: إني أخاف عليك أن تتبعها نفسك، ويشهد عليك الحسن وأصحابه، فقال: امض بنا فجئنا حتى وقفنا على الحسن، فقال: كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ فقال: بخير، كيف أصبحت يا أبا فراس؟ قال: تعلمن أن النوار مني طالق ثلاثاً، فقال الحسن وأصحابه: قد سمعنا، قال: فانطلقنا، قال: فقال لي الفرزدق: يا هذا، إن في قلبي من النوار شيئاً، فقلت: قد حذرتك، فقال:

ندمت ندامة الكسعي لما ... غدت مني مطلقةٌ نوار

وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين أخرجه الضرار

ولو أني ملكت يدي ونفسي ... لكان علي للقدر الخيار

قال الأصمعي: ما روى المعتمر هذا الشعر إلا من أجل هذا البيت.

المحاضرة العاشرة

دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن محمد الجرجاني، نسبة إلى جرجان، المدينة الفارسية العريقة التي ينتسب إليها عدد وافر من رجال العلم والأدب والفقه والحديث.

لم يذكر المؤرخون شيئاً عن طفولته وأسرته ونشأته، قال السِّلفي: (أحمد بن محمد السِّلفي، الحافظ المحدّث المتوفى سنة كان ورعاً قانعاً. دخل عليه لصٌّ وهو يُصلِّي، فأخذ ما وجد، وهو ينظرُ، وهو في الصلاة فما قطعها، وكان آيةً في النحو".

هذا جلُّ ما جاء في مصادر ترجمته، ومعظمها يقتفي أثر الآخر، ولا تكاد تحظى بكلمة واحدة تضيء ظلمة حياته الغابرة.

وقد عرضَ الدكتور أحمد بدوي لبعض ما تراءى له من شعره الذي رسم شيئاً من أحواله وعلاقاته ومواقفه غير المعلنة، وألخصها بما يلي:

* سخطه على عصره وعلى الأيام التي تضع من قدر العلماء وترفع من شأن الجهلاء من خلال قولته الشعرية الصادمة:

كبِّرْ على العِلْم، لا تَرْمُهُ ... ومِلْ إلى الجَهْل مَيْلَ هائِمْ

وعشْ حماراً تعشْ سعيداً ... فالسعد في طالع البهائم

أو قوله، على سخطٍ وأَنفةٍ مؤلمة:

هذا زمانٌ ليس فيه ... سوى النَّذالةِ والجَهالَهْ

لم يَرْق فيه صاعِدٌ ... إلاَّ وسُلَّمه النذالة

بَرَمُه بالناس وبنفسه وشعور بما يشبه حبسة اللسان. ولم يتوافق ذلك مع ورعه وسكونيَّته وطولِ باعه في الكلام المرسل المحكم المتدفق ..

آثاره

لم يترك الجرجاني آثاراً عديدة، ولكنه نوَّع فيما ترك، وذاع صيت بعض آثاره بما يغني عن التعداد والكثرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: المغْني ، والعمدة في التصريف، و "التكملة"، وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز ويعد هذا الأخير هو العلامة الفارقة في نتاج الرجل وعصره، والأثر الأنفس بين كتب ومصنفات البلاغة، من قبل ومن بعد. فهو لم يضع أسس علم ركْنٍ من علوم البلاغة العربية، بل وضع مصطلحاً علمياً فنياً أدبياً، قائماً على نظرية متكاملة لم يزد عليها العلماء من بعد إلاَّ التبسيط والتنوير ....، وهي**(نظرية النظم)**

التعريف بكتاب دلائل الإعجاز

حمداً لمن علَّم بالقلم، فلولا القلمُ لما وصلَ علمُ الأولين إلى الآخِرين، ثم حمداً لمن علَّم الإنسانَ من صناعة الطبع ما لم يكن يَعْلم؛ ولولا الطباعةُ لما سهلَ انتشارُ العلوم في العالَمينَ، وصلاةً وسلاماً على مَنْ أرشدَ جميعَ الأُمم إلى الاختراع والابتداع في أمور الدنيا،

مكانة الكتاب

أما الكتاب، فيعرف مكانَتَه مَنْ يَعرف معنى البلاغة، وسرَّ تسمية هذا الفن "بالمعاني". وأما من يجهل هذا السر، ويحسب أنَّ البلاغة صناعة لفظية محضة، قِوامها انتقاءُ الألفاظ الرقيقة أو الكلمات الضخمة الغريبة، فمثل هذا يعالَج بهذا الكتاب. فإن اهتدى به إلى كون البلاغة ملكة روحية وأريحية نفسية رُجيَ أن يبرأ من علَّته، ويقف على مكانة الكتاب ورتبته؛ وإن بقيَ على ضلاله القديم وجَهْلِه المقيم، فاحْكُمْ بإعضال دائه، وتعذُّر شفائه. إنما وُضعَ الكلامُ لإفادة المعاني. والبلاغةُ فيه هي أن تَبلغ به ما تُريد من نَفْس المخاطَب، من إقناع

وترغيب وترهيب، وتشويق، وتعجيب، أو إدخال سرور أو حزن أو غير ذلك وكلُّ هذه المقاصد أمور روحانية، يُتَوصل إليها بالكلام. فمعرفة قوانين النحو والمعاني والبيان شَرْطٌ فيها، ولكنها غير كافية للوصول إليها، بل لا بدّ من الهداية إلى أسباب كون الكلام مؤثِّراً، وإيراد الشواهد والأمثلة الكثيرة في المعنى الواحد، والموازنة بين الكلامين يتفقان في المعنى، ويختلفان في التأثير، كقول المُعبِّر الأول لذلك الملكِ الذي رأى في نومه أنه فقدَ جميع أسنانه، أَنَّ جميعِ أهلِكَ وذوي قرباك يَهلِكون؛ وقولِ المعبِّر الثاني له: الملك يكون أَطولَ أهلهِ عُمراً. وهذا المذهب هو الذي ذهبَ إليه الإمام عبد القاهر في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة). وقد خلَفَ من بعده خلَفٌ جعلوا البلاغة صناعةً لفظية محْضة، فقالوا: الُمسْنَد يُعرَّف لكذا وكذا، ويُنكَّر لكذا وكذا الخ. ولم يُبَيِّنوا السرَّ في ذلك، ولم يوازنوا بين مسند منكرٍ عرفتْهُ البلاغة، وآخرُ أنكرتُه وهو مثله، ويبينوا السبب في ذلك؛ ولم يُعْنوا بإيراد الشواهد والأمثلة والبحث في الفروق. وقد اختار أهل هذه الأزمنة الأخيرة، هذه الكتب المجْدِبة القاحلة، على مِثْل كتب عبد القاهر الخصبة الحافلة، لكثرة الحدود والرسوم والقواعد والمشاغبات في كتب المتأخرين؛ فكان أثرها فيهم أن حُرِموا من البلاغة والفصاحة، حتى إنَّ أعلَمَهم بهذه الكتب، وأكثرَهُم اشتغالاً بها، هم أعياهم وأعجزُهم عن الإتيان بالكلام البليغ (بل والصحيح) قولاً وكتابة.

قال أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، رحمه الله تعالى: (معلوم أَنْ ليس النَّظْمُ سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجَعْلِ بعضها بسبب من بعض. والكَلِمُ ثلاثٌ: اسم، وفعل، وحرف. وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام – تعلُّقُ اسم باسمٍ، وتعلق اسمٍ بفعل، وتعلق حرف بهما).

والشيخ عبد القاهر الجرجاني أُعطي من القدرة والعبقرية ما جعله ينكبُّ على تراث العربية ونتاج شعرائها فيستخرج منه البنى اللفظية والمعنوية والتصويرية التي جرى بها اللسان وفقاً لأصول وأساليب مرسومة ومبتدعة، ويضعها في مقابل النتاج اللغوي الإلهي، فيرى عبقرية

العربية التي وُضع فيها أجمل الصنائع، وأنَّ ذلك ناشئ عن قانون قديم تفجَّر بين حرور الرمال المحرقة، وظلال النخيل والواحات الوارفة؛ جعلهم يُبدعون قصائد شعرية لا نزال حتى اليوم عاجزين عن الإتيان بمثلها، وأُنزل القرآن بهذه اللغة وقانونها فزاد الألَقُ ورقيَ بهم النسقُ التعبيري إلى المرتبة التي اقتضتْ وضْعَ ما سمَّاه الجرجاني: "النظم" استناداً إلى الأصل اللغوي، وإلى القسمات الفنية المتسقة المتقنة التي استجلاها من قرائح الشعراء وعلماء النحو والبلاغة، ووشَّجها بالمثال القرآني المعْجز، وهذه حقيقته التي شرحها غير مرة في كتابه الخالد قائلاً:

"إعلم أن ليس النظمُ إلا أن تضعَ كلامكَ الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجَه التي نُهِجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمتْ لكَ فلا تُخلَّ بشيء منها.

فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وُصف بمزيةٍ وفضل فيه، إلاَّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه.

ولدينا في كتاب "الدلائل" نوعان من "النظم"، الأول إبداعي إنشائي مصدرُهُ الشواهد القرآنية والشعرية، والثاني، وصفي نقدي، مصدره الخطاب الأدبي البليغ الذي يصدر عن صاحبه صدورَ الشهد عن النحل، ولنا الكتاب كلُّه مثالاً غير محدود. ولكنني أقتطف مثالين صغيرين سريعين، مُحيلاً إلى فِقَرٍ لاحقة في هذه المقدمة، موقوفة على مقتطفات من صنيعه الجميل.

المثال الأول: "وأمَّا زهدُهم في النحو، واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونُهم به: فصنيعُهم في ذلك أشنعُ من صَنيعهم في الذي تقدم (...) إذْ كان قد عُلم أنَّ الألفاظ مغلقةٌ على معانيها، حتى يكون الإعرابُ هو الذي يَفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنة فيها حتى يكونَ هو

المستخرِجَ لها، وأنه المعيارُ الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلام ورجحانُه حتى يعرضَ عليه، والمقياس الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سَقيمٍ حتى يُرجع إليه".

المثال الثاني: يتعلق بشرح شاهد قرآني، يعتمده لتأكيد علاقة اللفظ بالنظم: "وشبيهٌ بتنكير الحياة في هذه الآية، تنكيرها في قوله عزَّ وجلَّ: {وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: ١٧٩] وذلك أنَّ السبب في حسن التنكير وأنْ لم يَحْسُن التعريفُ، أنْ ليس المعنى على الحياة نفسها، ولكنْ على أنه لمَّا كان الإنسانُ إذا عَلمَ أنه إذا قتلَ قُتِل، ارتدعَ بذلك عن القتل فسلم صاحبُه، صارتْ حياةُ هذا المهموم بقتله، في مستأنفِ الوقت، مستفادةً بالقصاص، وصار كأنه قد حَييَ في باقي عُمره، أي بالقصاص".

نعْمَ الشرحُ والتحليل، ونعْمَ العقلُ النَّيرُ الذي مدَّ صاحبَه بهذه الحَزْمة الضوئية نفذَتْ ببصره إلى ما وراء الألفاظ والمعاني، فأطْلع لنا حكمة الآية المحكمة، وجعلتْنا نقرأ في (القصاص) حياة على الرغم من كونه قد يكون قتلاً آخر ..

ونُدهش من جديد، وهو يستقصي الحكمة من ورود كلمة "حياة" منكَّرة، ليقرِّر مسألة دقيقة لا يلحظها إلاَّ العارف المتأمل، وهي وقْفُ (الحياة) على مرتكب القتل الذي اقتُصَّ منه، وليس على أي إنسان: "لا يكون ارتداعٌ حتى يكونَ همٌّ وإرادةٌ، وليس بواجبٍ أن لا يكون إنسانٌ في الدنيا إلاَّ وله عَدوٌّ يَهمُّ بقتله ثم يردَعُه خوفُ القصاص، وإذا لم يجب ذلك، فمن لم يَهُمَّ بقتله فكُفيَ ذلك الهَمَّ لخوفِ القصاص، فليس هو ممن حَيَّ بالقصاص".

من خلال هذه الأمثلة، لا بد من الاعتراف بأن النص المحكم الذي يستخدمه المؤلف هو "نظم" من النسق الرفيع، له جمالُ وقعه ونكهة تتبُّعه وتحسس مجرى المعاني في سرِّهِ وإظهار ذلك للعيان بطريقة أو بأخرى.

ومن شروط النظم وطبيعته، قيامه على الكلمات، لا الحروف، باعتبار مكانها، وحسْن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخَواتها. وهذا يعني أن تكون الكلمة

فصيحة لا بحُروفها ولكن بما ينجم عنها وعن موقعها من أسباب الجمال والتأثير، بحيث لو حدثَ لها أي خلل مهما صغر، انعكس ذلك سلباً على واقع النص.

"وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلاَّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسْنَ ملاءمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لجاراتها؟ وهل قالوا: لفظةٌ متمكنة ومقبولة، وفي خلافه؛ قلقلة ونابية، ومستكرهة، إلا وغرَضُهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبوِّ عن سوء التلاؤم، وأنَّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤدَّاها".

ولم يكتف المؤلف بهذا التوضيح الدقيق، بل عمد إلى التفريق بين "الحروف المنظومة" و "الكلم المنظومة" فقال:

"إنَّ نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضىً عن معنى .. (...) فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فَسَاد. وأما نظم الكَلِم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وتُرتِّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعضٍ، وليس هو النظم الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق".